هل تندثر مدوّنات العصر؟

او الورق والتاريخ

اقتراح على اصحاب الصحف العربية

وضع لنا مؤرخو القرن التاسع عشر والقرن العشرين قواعد الاسلوب العلمي في كتابة التاريخ فكان من اهم هذه القواعد العناية بالآثار والمدوّنات والوثائق الرسمية واستنطاقها متجردين عن هوى النفس . فرسّخ ذلك في نفوسنا وجوب العناية بحفظ مصادر التاريخ سليمة لا تعبث بها ايدي الدهر في حدثانه . لذلك تبنى خزائن الكتب وتشاد المتاحف تحفظ فيها الآثار او توقف المبالغ الطائلة من المال على العناية بدور العلماء والفلاسفة والقوّاد لتكون مزاراً للناس ومصدراً للتاريخ

وبعد ما علمنا مؤرخو القرن التاسع عشر والقرن العشرين قدسية هذه الآثار وضرورة حفظها سليمة حتى يستطيع مؤرخو القرون المقبلة ان يستنطقوها اخذ الكتّاب والعلماء والفلاسفة يطبعون كتبهم على ورق مصنوع من رُبّ الخشب الذي لا يلبث ان يأتي عليه حين من الدهر حتى يتلف ويندثر

ولا يعرف عصر في عصور التاريخ منذ فجره الى الآن عمد أبناؤهُ الى تخليد آثارهم في مادة قابلة للاندثار كهذا العصر . فمن شرائع الحيزران التي كتبت عليها كتب سيلان المقدسة الى الرُقُم الدنانية التي حفظت فيها كتابة الاشوريين المسمارية الى ورق الصين الحريري الى بردي مصر وغرائبها الى رقوق العصور المظلمة — مواد مهما قيل فيها فلا سبيل الى انكار مقدرتها على مقاومة اعتياب الدهر قروناً بل عشرات القرون . اما الورق الذي تطبع عليه صحفنا اليومية واكثر مجلاتنا الشهرية وطائفة كبيرة من الكتب فلا يقدّر لهُ من الحياة اكثر من عشرين سنة او ثلاثين

فدروج البردي المصرية التي يرجع تاريخها الى اكثر من اربعة آلاف سنة لا تزال محفوظة سليمة من الاذى تتناولها ايدي العلماء تطويها وتنشرها وهي تفضل في ذلك كثيراً من الصحف اليومية التي طبعت في اثناء الحرب الكبرى . وفي خزانة ليدن الهولندية كتاب عربي من عصر النبي مكتوب على ورق مصنوع من الياف القطن ولا تزال صفحاتهُ متينة

تقلبها وتقرؤها فاذا هي افضل من كثير من كتب العصر. وبعض المطبوعات التي طبعت في اوائل عهد الطباعة تفوق في متانتها المجلات والجرائد التي طبعت سنة ١٩٠٠ والتي اخذت يد الدهر تمزقها كلّ ممزق

اطلعنا على هذا البحث النفيس في مجلة السينتفك اميركان فرأينا ان نأتي على خلاصته ونشفعهُ باقتراح على اصحاب الصحف العربية لا بدَّ ان تنجم عنهُ فائدة علمية اذا أُخذ به. فابناء الحضارات القديمة خلفوا لنا آثارهم في رقم الدلتان ودروج البردي واحجار الغرانيت وصحائف الحرير ولفائف الرق وهي لا تزال متينة تفاوي انياب الدهر على قدم عهدها به. فهل يكون نصيب الصحف والمدوّنات في هذا العصر نصيب المدوّنات القديمة من البقاء؟

صناعة الورق من الحرير والكتان والقطن قديمة يرجع تاريخها الى اثني عشر سنة تعلمها العرب من ابناء الصين ونقلوها الى اوربا في العصور المتوسطة فحلَّ الورق محلَّ الرقوق الثمينة التي كانت معتمد الاوربيين الوحيد في نسخ المخطوطات

ويقال ان الامبراطور فردريك باربروسا منع استعمال هذا الورق لكتابة الاوامر والنشرات الامبراطورية لظنهِ انهُ ضعيف المقاومة سهل الاندثار

ثم استنبط فن الطباعة فقلب آية التأليف والنشر وبنيت عليهِ صناعة كبيرة هي صناعة طبع الكتب ونشرها. وصارت الكتب في متناول الجمهور فانتشرت آيات العلم والفلسفة والصناعة وما زالت حتى الآن تزيد رواجاً وذيوعاً. على ان استنباط فن الطباعة ما كان يكفي لرواج الكتب وذيوعها لولا استنباط طريق صناعية لصنع مقادير كبيرة من الورق بنفقة قليلة

لقد ثبت ان الورق الذي كان يصنع في العصور الوسطى باليد من الياف الكتان او القطن يستطيع ان يبقى على الزمن ويقاوم انياب الدهر. فخلاف الامبراطور فردريك باربروسا لم تكن قائمة على اساس متين. والنشرات الامبراطورية عمّرت بعد ما زالت القوانين التي دُوّنت فيها. والكتب التي طبعت في القرن الخامس عشر لا تزال في خزائننا متينة القوام صافية الرواء

ولكن في اوائل النصف الثاني من

القرن التاسع عشر كشف عن مبدأين جديدين قلبا صناعة الورق رأساً على عقب . الاول استنباط آلة لصنع مقادير كبيرة من الورق بنفقة قليلة . والثاني صنع الورق من الالياف الخشبية التي في انواع مختلفة من الحشائش والاخشاب فرخص بذلك ثمن الورق كثيراً عما كان عليه وصار في مستطاع اصحاب الجرائد ان ينشئوا صحيفة في نحو ٢٤ صفحة من حجم المقطم ويبيعوها باقل من نصف غرش. نعم ان الاعلانات مورد كبير من موارد الرزق لاصحاب الصحف ولكن لولا استنباط الآلات التي تصنع لفات الورق الضخمة ولولا الكشف عن طريقة لصنعه من الياف الاشجار والحشائش الرخيصة الثمن متى قيست بثمن ألياف الكتان او القطن ، لبقي الورق غالي الثمن وبقيت الصحف مقيدة بقيود ثقيلة تعيقها عن النهوض والارتقاء

والمبدأ الذي بنيت عليه صناعة الورق هو استعمال الالياف الخشبية الدقيقة التي في جدران الخلايا النباتية سواء كانت هذه الخلايا من خرق قطنية او من جذوع اشجار او من انواع خاصة من القش . تؤخذ الخرق القطنية مثلاً فتنظف وتقطع وتبل وتغلى حتى تتحول رُبًّا ثم يؤخذ هذا الربُّ ويوضع في اسطوانة كبيرة وتمر بماء نقيّ حار اذيبت فيه الصودا وتضرب جيداً بأجهزة خاصة حتى تقطع الالياف الخشبية ويصير الربُّ دقيقاً ثمَّ يلوَّن باللون المطلوب او يُقصَّر او يترك على لونه ثم تضاف اليه مادة غروية تمسك الالياف الخشبية الدقيقة معاً فيستطاع مدّها ورقاً. ثم يحمَّل كل هذا بالماء ويمرُّ طبقات رقيقة جدًّا في آلة معقدة التركيب فتبخر الماء رويداً رويداً وتترك الالياف والغراء فتتماسك معاً وتصير ورقاً

فالالياف الخشبية هي العمدة في صناعة الورق فاذا انحلَّت هذه الالياف واندثرت انحلَّ الورق المصنوع منها واندثر . والالياف تختلف في قبولها للانحلال والاندثار باختلاف المصادر التي تؤخذ منها . فمنها الياف يصعب عليها أن تتحد بغيرها من المواد فتحفظ توامها زمناً طويلاً ومنها ما يسهل عليه هذا الاتحاد فيبلى ويندثر . فقيمة كل ورق قائمة على استعداد الياقه للاتحاد بغيرها من المواد او عدم استعدادها لذلك. ولا يخفى ان المادة الاساسية في كلّ هذه الالياف سواء كانت من القطن او الكتان او القنب او القش او الخشب هي السلولوس . ولكن سلولوس الخشب يحتوي على مواد ميالة الى الاتحاد بغيرها فالورق الذي يصنع منها سريع الانحلال قريب العهد بالفناء . واما سلولوس القطن والكتان والقنب فيحتوي على مواد ميالة الى العزلة غير راغبة في الاتحاد بغيرها من المواد. فالورق

الذي يصنع منها ورق متين يبقى على الزمن . اما العنصر الذي يبلي الورق فهو اكسجين الهواء الذي يتحد ببعض المواد التي في الالياف فتتحلّ وتندثر واتحادهُ بها هو من قبيل الاحتراق البطيء لان كل اتحاد بالاكسجين في عرف الكيماويين احتراق فاذا كان الاتحاد عنيفاً تولدت حرارة تظهر لهباً واذا كان بطيئاً كانت الحرارة التي تتولد من هذا الاتحاد قليلة متدوجة الظهور فلا يظهر لها اثر بيّن

واذا كان الجو رطباً او عُرّض الورق اتفاقاً لدخان بعض الغازات فعلت به بقايا الحوامض التي دخلت في تركيبه واتلفته واذا طلي الورق بالجلاتين اصبح مرتعاً خصباً للمكروبات حين بلّه. على ان عدو الورق الاكبر هو الاحتراق البطيء اي الاتحاد بالاكسجين فاذا كانت الياقهُ من الشجر والقش لم يقو الورق على هذا العدو وخصوصاً إذا كان كثير الاستعمال واما اذا كانت من الكتان او القطن او القنب صدتهُ عنها هازئة به

الصحائف والتاريخ

والصحف هي السجلّ الذي تدوّن فيه كلُّ انباء العمران يوماً فيوماً ويجب ان يكون سجلاً خالداً يستطيع ابناء القرون المقبلة ان يرجعوا اليه كمصدر من مصادر التاريخ . على ان قرّاء الصحف لا يحفظون نسخة منها بعد مطالعتها فطبعها على ورق كتاني متين من قبيل الاسراف الذي لا داعي لهُ فضلاً عن انهُ يهدُّ انتشار الجريدة لغلائها . ولكننا نرى انهُ يجب على كل صاحب جريدة او مجلة ان يطبع منها بضع نسخ على ورق كتاني متين تحفظ في ادارة الجريدة نفسها وفي خزائن الكتب العامة. وقد كانت جريدة نيويورك تيمس سبّاقة الى تحقيق هذه الغاية فان اصحابها يطبعون كلَّ يوم نسخاً منها على ورق كتاني كالقماش ليحفظ سجلاً عامًّا لما في العمران. وقيمة الاشتراك بنسخة من هذا النوع ٣٤ جنيهاً مع ان قيمة الاشتراك بنسخة مطبوعة على الورق العادي لا تزيد على ١٤٠ غرشاً صاغاً

وعندنا انهُ يجدر بكبريات الصحف المصرية ان تطبع كلٌّ منها بضع نسخ كل يوم، على ورق كتاني متين تحفظ احداها في دار الكتب المصرية والاخرى في خزانة الجامعة المصرية والثالثة في خزانة ادارة المطبوعات (اذا كان لها خزانة لحفظ الصحف) ورابعة لادارة الجريدة نفسها. ولا بد ان تعنى بعض الجامعات الكبيرة في اوربا واميركا وحكومات البلدان الشرقية بطلب هذه النسخ المطبوعة على ورق خاص لحفظها في خزائنها . فمجلدات الصحف المصرية في دار الكتب المصرية تكاد تندثر في زواياها لكثرة التقليب مع انهُ لم يمضِ على اقدمها من الصحف المنشورة الآن اكثر من قرن واحد